نيجيريا في التاريخ القديم

النيجر كلمة محرفة من نيغرو وهي لاتينية الأصل معناها الزنجي القصير، وقد أطلقوها على كافة الزنوج الشرقيين بأستراليا وأندونيسيا والغربيين بأفريقيا وقد تحدث الرحالة الأوائل عن نيغرو ضمن مشاهداتهم بالبلاد التي مروا بها ورواه هيرودت أبو التاريخ بالقرن الخامس قبل الميلاد وقد ذكر في أثناء كلامه عن شمال أفريقيا وصحراء ليبيا وينابيع النيل على لسان خمسة فتيان الذين أرسلوا للبحث عما في بادية ليبيا وقال ما معناه:

«فالفتيان الخمسة المذكورون أرسلهم أصحابهم وزوّدوهم شيئًا كثيرًا من الطعام والماء فدخلوا أولاً بلادًا مأهولة بالسكان ثم بلادًا فيها الوحوش الضاربة بكثرة ثم تقدموا غربًا يتبطنون القفار حتي رأوا بعد سير طويل في الرمال بقعة شجراء فدخلوها وأكلوا من ثمارها وبينما هم يأكلون انقضت عليهم جماعة من الناس قصار القامة وأخذوهم جبرًا وساروا بهم في أماكن كثيرة المنافع وبعد أن اجتازوها وصلوا إلى بلد كل أهله سود البشرة أجسامهم صغيرة كالأولين وكان يشق البلد نهر كبير فيه تماسيح وهو يجري من الغرب إلى الشرق[1]».

ويقرر الرحالون الآخرون من الفرس والقرطاجنيين والمصريين وغيرهم وجود هذا النوع من البشر في هذه البقعة من الأرض ومن الشواطئ الغربية لأفريقيا فيما يعرف اليوم بغينية وغمبيا وغانة وسيراليون ونيجيريا وكمرون.

---

(١) طبقات الأمم ص ١٣١ لجرجي زيدان.

كتبت مارغريت ا. بوتس في كتابها موجز تاريخ نيجيريا أنه ثبت في تاريخ مصر القديم أن أحد الفراعنة المسمى بادخوار الذي عاش بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد قام بفتوحات واسعة النطاق ومعه زهاء سبعة آلاف مقاتل فزحف بها إلى سورية واستولى عليها ثم طاف حول البحر الأبيض المتوسط واجتازه إلى أسبانيا فدوخها ثم انثنى راجعًا إلى بلاده ومر في طريقه ببلاد البربر في شمال أفريقيا ثم انعطف قليلاً نحو الجنوب ولقي بها جموعًا عديدة من أجناس البشر الحفاة العراة وسار فيهم حتي وصل إلى النهر الأسود واجتمع هناك بسلطان عظيم المملكة والأبهة وتبادل معه الهدايا من العبيد والإماء والأحجار الكريمة[1].

ومن هذا العهد بدأت الصلات السياسية والعلاقات التجارية بين مصر وأفريقيا الغربية.

وفي تاريخ مصر القديمة أنه قد جاء في بعض النقوش الهيروغليفية أن حابي الأول من العائلة السادسة ٣٧٠٠ ق.م. جيء إليه بالذهب والعبيد من السودان الحالي وجاؤوه برجل من البغمة ليكون في جملة الراقصين للآلهة وتسلية لصاحب العرش[2].

وذكر هيرودت أن الجيش المصري على عهده كان مؤلفًا من وحدات مختلفة منها وحدات الزنوج الذين يلبسون جلود الفهود والنمور ويدهنون

---

(1) A short history of Nigeria by Margaret I. Pott.

(٢) طبقات الأمم ص ٨١.

أجسامهم بالتراب الأبيض والأحمر قبل مضيهم إلى الحرب ويحملون قسيًا من أغصان النخل وسهامًا من القصب ينتهي رأسها بحجر بدلاً من الحديد ورماحًا مصنوعة أسنتها من قرون الماعز[1].

على أن هذه الأسلحة التي يصفها أبو التاريخ للزنوج في عهده ليست بعيدة كل البعد عن التي يستعملها بعض القبائل المحافظة في حروبها حتي زمن الاحتلال الأوروبي لهذه البلاد. لأن من عادات الزنوج المحافظة على التقاليد الموروثة من الأسلاف عبر الأجيال والأحقاب ويعتبرون الخروج عليها جريمة كبري فإن كان لابد من التطور فبصورة بطيئة جداً.

إفريقيا الغربية عند العرب:

تعرف أفريقيا الغربية عند العرب ببلاد السودان ويعرف نهر النيجر باسم نيل السودان ونحن نورد هنا طرفًا مما كتبوا.

وقد كتب عمر بن الوردي بالقرن السابع الهجري وقال ما نصه ببعض التصرف[2]:

«وتكرور مدينة في جنوبي النيل وغربيه وبها أمم عظيمة من السودان وهي مقر ملكهم وببلادهم معدن الذهب ويسافر إليها أهل المغرب بالصوف والنحاس والخرز والودع ولا يجلب منها إلا الذهب العين».

ولَمْ لَمْ مدينة متوسطة وعندهم معدن الذهب وأرض مغراوة وأرض غانة التي هي أكبر بلاد السودان وأوسعها شجراً ومالاً وهي مدينتان على

---

(١) في بلاد الزنوج ص ٢٥.

(٢) خريدة العجائب ص ٥٦- ٥٨ لابن الوردي.

ضفة النيل ويقصدها التجار من سائر البلاد وأرضها كلها ذهب طاهر ولهم في النيل زوارق عظيمة وأهلها يستخرجون الذهب ويصنعونه كاللبن.

وأرض كانم هي أرض منبسطة واسعة علي شاطئ النيل وأهلها مسلمون إلا القليل منهم وهم علي مذهب مالك.

ويقول ابن بطوطة ١٣٤٠ - ١٣٧٨م في رحلته المشهورة[١]:

«ثم سرنا فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخُو والنيل ينحدر منها إلى كابرة ثم زاغة وأهلها قدماء الإسلام لهم ديانة وطلب للعلم ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تمبكتو إلى كوكو ثم مالي التي هي من أكبر بلاد السودان وسلطانها المسلم من أعظم سلاطينهم ولا يدخلها الأبيض لأنهم يقتلونه قبل الوصول إليها ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كأنه قارب صغير».

ويقول ابن خلدون[٢]:

أما الجزء الأول من هذا الأقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر ويسمي نيل السودان ويذهب إلى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة اولئك وعلي هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد تابعة لمملكة مالي من أمم السودان والى بلادهم يسافر تجار المغرب الأقصى وبالقرب من شماليها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثمين ومفاوز يجولون فيها وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لَمّ لَمْ وهم كفار يكتوون

(١) رحلة ابن بطوطة «٢» من سلسلة الرحلات الجغرافية. ص ١١١.
(٢) المقدمة ص ٤٥.

في وجوههم وأصداغهم وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلي المغرب وكلهم عامة رقيقهم.

تلك لمحات فيما ورد من الكُتَّاب العرب وغيرهم ممن كتبوا عن هذه البلاد ويجب أن نعرف أنهم لم يزوروا هذه البلاد ولم يشاهدوا أحوالها بأنفسهم وإنما يعتمدون فيما يكتبون على الأخبار الشفهية التي لم تغربل ولم تنتقد فهي لا تخلو من الأغلاط فقد اعترف علماء التاريخ المحققون أن كتب المؤرخين القدامى كهيرودت وغيره لا تخلو من أغلاط التاريخ وقد وقع في ذلك ابن خلدون نفسه حيث يتوهم أن نيل السودان (نيجر) ينبع من النيل من سفح جبال القمر وهي سلسلة من الجبال الثلجية التي يحصل النيل منها علي مياهه فلا يصح أن النيل والنيجر ينبعان من مكان واحد.

وهناك حقيقة أخرى حققها المؤرخون وأيدهم ابن خلدون بقوله: «ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من الخليقة لأن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستمر إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده[1].

●●●

(١) المقدمة ص ٢٣.